الحضارة الاثينية القديمة

(تابع ما قبله)

مبانيهم وطرقهم

كانت مبانيهم دليلاً على عظمة نفوسهم ودقة اذواقهم وحسب طالب الدليل في ذلك بناء الاكروبوليس وما اشتمل عليه من النقوش ومظاهر الجمال . وكان مدخل اثينا المسمى بروبيلاس بناء فاخراً أُنفق عليه ما يقدر بنحو ٥٠٠٠٠٠ جنيه من نقود هذا الزمان . واذا لم يكن من اهمية هذه المباني الاَّ انها كانت تبعث الغيطة في قلوب الاهالي وتثلج صدورهم مجداً وفخاراً بانهم منشؤوها ومعتمو صروحها فكفى

ولقد قال يوماً ديموستنيز «ان اثينا تحرز اعيانًا باقية مدى الدهور فهي تملك ذكرى اعمالها المجيدة وجمال الاثار القديمة وكفاك من كل ذلك الاكروبوليس والپارثنون»

واذا ولج القادم باب المدينة وجد امامهُ تمثال بطل من الابطال متدرع بالرمح والمجن والمغفر . وقد بقي هذا التمثال مدة طويلة من الزمان يمثلاً القوة الحافظة لكل اهل اثينا

اما اشكال معابدهم الهندسية فكانت واحدة تقريباً غير انها كانت تتفاوت في التزويق والسعة . وكان يضيئها فتحات في سقوفها وانعكاس الضوء من جدرانها الرخامية الشفافة . وقد كان للاثينيين حذق في الهندسة يداني دقة المصريين القدماء . وهذه مبانيهم شاهدة لهم . واذا تعرفنا مبانيهم الفاخرة وتصورنا النضوء الذي كان ينبعث من رخامهم الابيض المتبرقق وتزاويقهم الذهبية . وادركنا كذلك ان تلك الخطوط والالوان والنسب انما كانت تُدرك وتنفذ بابصار قوم يحبون هذه الاشياء حبًّا لذاتها ولذاتها . وتذكرنا ايضاً ان الاكروبوليس كان ينفق في سبيل انشائهِ — فضلاً عن الذكاء الانساني — مبلغ من المال يعادل ٦ او ٧ ملايين من دنانير هذه الايام وان الرجال الذين كانوا قائمين باعباء هذا العمل يدعون اليهِ وينفقون عليهِ من مالهم انما كانوا يتنعمون بالعيش في بيوت قد لا يكون من حقها الاَّ الحقارة والاستخفاف — اذا اعتبرنا ذلك كلهُ سهل علينا جدًّا ان ندرك ما كان مستقراً في نفوس اولئك القوم من روح التضامن والروح الدينية وعشقهم للفنون

واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام

كان عند الاثينين مظلات مشيدة من الرخام ذات ابواب وعرصات يسهل فيها الطلاب وعلمة الناس ضلاً للراحة حيناً او المطالعة حيناً او المناقشة والمجادلة . وكانت جدرانها مزينة بتصاوير تمثل الزواج والحروب والحوادث التاريخية والجغرافية . كانت هذه المظلات تستعمل في بعض الاحايين لعقد المجالس القضائية او الاجتماعات العامة الاعتيادية وكانت فوق ذلك ملجأ لابناء السبيل ومن لا عمل لهم حتى يجدوا فيها عزاء وتسلية بلقاء اهل بلدهم ومحادثتهم اطراف الحديث

بينما كانت هذه المظلات ذات سقوف كانت المراسح والمجالس الرسمية عارية عنها . واذا كانت الحال كذلك افلم يكن هناك مبانٍ اخرى مغطاة بالسقوف ؟ بلى . ان الاثيني كان يلحظ في كل بناء الغرض الذي شيد من اجله ذلك البناء . ولنضرب لذلك مثلاً بدار الاغاني " Odium " فقد كان الغرض من تشييدها سماع التوقيعات الموسيقية واغاني المغنين . ولما كان ذلك يستلزم مكاناً محصوراً جعلوا لهذا البناء سقفاً على شكل قبة

لم يكن للاثينين في ذلك العصر خلاف ما ذكرناه من المباني الشاهقة والصروح الشامخة شيء من البيوت او القصور او الطرقات المنسقة المنظمة . ولقد وصف احد كتاب اليونان مدينة اثينا بقوله « ان اثينا بلدة مثربة مغبرة قليلة المياه حقيرة البيوت وان الاجنبي عنها ليرتاب لاول وهلة عند رؤيتها وينكرها فلا يصدق بها حتى يرى مرسحها وسامق مبانيها . فهي ضيقة الطرق معوجة السبل

واول بقعة في اثينا حظيت بتنظيم الطرق هي مرفأها بيريه في عهد تموطقلس المشهور وعلى يدي المهندسين الكبيرين هيبو دامس وهوميان

ولقد يدهشنا جداً ما نراه من عبادة هؤلاء القوم للفنون الجميلة ورقيهم العقلي مع ما كانوا عليه من التسامح والتساهل في امر قذارة طرقهم وعدم استكمالها لوسائل الراحة العامة . فكأن الاثينين كانوا احط من الرومانيين في العناية برصف طرقهم وتنسيقها . قال المؤرخ استرابو ان اليونانيين كانوا عشاق جمال وذوي عناية بحصونهم كلفين ببرافقهم وخصب ارضهم بينما كان الرومانيون مولعين بتنسيق طرقهم وحماماتهم وتوفير المياه عندهم

اما طرقها فكانت حالكة الظلام في الليل محرومة من النور . واذا لم تكن الليلة مقمرة اضطر السائرون الى حمل المصابيح او المشاعل . كان السكان في حلٍ من قذف فضلاتهم ومياههم العفنة من نوافذهم . وما على احد الا ان ينبه السابلة بقوله " Existo " اي تنحَّ عن الطريق وكان في اثينا ملاحظو طرق الا انهُ لم يكن من واجبات هؤلاء الا منع الاعتداء والمزاحمة

وملاحظة المرور ومراقبة الكناسين . والنتيجة ان اثينا كانت غير مراعية القوانين الصحية حتى ابتلاها الله بطاعون كان يفتك باهلها فتكاً ذريعاً كما قال مؤرخهم ثيوسيديدس واذا قدرنا ما قالهُ المؤرخ استرابو من ان الاثينيين لم يعنوا باس المياه ووسائل توفيرها ادركنا ما كان يتكبدهُ الاهالي اذ ذاك في نقلها الى منازلهم فمنهم من كان يحتفر الآبار او يتخذ لنفسهِ صهريجاً من المعدن ومنهم من كانوا يرسلون بارقائهم فيأتونهم بالمياه في قدور كبيرة

هذا ما كان من امر معاشهم وحياتهم الاجتماعية

الوطنيون والنزلاء والعبيد

واذ قد علمنا حياة الوطني بوجه عام فلنبحث الآن في حال الاهالي جميعاً وصلاتهم السياسية والاجتماعية . فالسائر في طرقات اثينا قد يرى ثلاثة او اربعة من الوطنيين البحت وعدوًّا آخر من العبيد . على ان هناك نوعاً ثالثاً من الاهالي اي النزلاء الاجانب عن البلد وهم الذين لاحظٌ لهم في تدبير شؤون البلد او وظائفهِ العامة . بل انهم مباح لهم تعاطي التجارة في اثينا والتمتع بحمايتها ومزاياها نظير جُعْل من المال يرضخون بهِ للحكومة . ولم يكن لاحدهم ان يمتلك قيدَ شبر من الارض . ولم يكن هناك مظهر مخصوص لكل صنف من الناس ولم يكن الارقاء يلبسون ثياباً خصيصةً كما كان عليهِ الامر في اسبارطه ولا يرسلون شعورهم كعبيد اسبارطه ولا يختلفون عن الاحرار في اللون الاَّ ما كان من بعض الارقاء الاثيوبيين . كما انهُ لم يكن بين المجموع فرق في المهن والصناعات . واذا مررت باسكاف لم يمكنك ان تحكم عليهِ هل هو من الاحرار او الارقاء . هذا امر حريٌّ بالامعان والتدبر اذ انَّا نفهم منهُ ايضاً ما كانت عليهِ اثينا من مبادىء الديمقراطية البحتة

كان الرقيق رجلاً غير ذي ثروة ولم يكن عاطلاً ولا جندياً ولكنهُ كان رجلاً عاملاً . واذا شئنا ان نعرف نصيب الرقيق في الحياة العملية الاثينية تجلَّى لنا ذلك فيما يلي

الجمعية العمومية

كان القوم يهرعون الوفاً في ذلك اليوم يوم التئام الجمعية ويصعدون الى مرتفع من كل انحاء اثينا ومرافئها ببرهِ يستوي في ذلك فقيرهم وغنيهم . حقيرهم وامیرهم . وملاك الضياع والزراع والتجار والباعة واهل البطالة والحدادون وصناع الاحذية والنقاشون وباعة الاسماك وارباب الفنون الجميلة لا تميز بين بيض الايدي وسودها . يذهبون الى ذلك المرتفع من الارض وكلهم ذوو حق في التصويت ذوو حق في ان يشكوا ليسمع منهم . ولا نفاذ اذا

قلنا انهم كانوا جميعاً في مستوى واحد تقريباً من قوة التفكير والقدرة على الخطابة وحسن البيان. ولكنهُ لم يكن بين هؤلاء فرد واحد من الارقاء. وقد كان البعض يتخلف عن ذلك الاجتماع ممن لا تمكنهم اعمالهم من ذلك او الذين لا يحفلون به او طائفة ممن الفوا فضائل النعيم وغارق الراحة ولذة البطالة

اضف الى هؤلاء القاعدين ايضاً النزلاء الاجانب الذين ليس لهم حظ من الاعمال الادارية قلَّ او كثر ويهمني جداً في هذا المقام ايها السادة ان يستقر في اذهاننا ان الذين كانوا يغشون ذلك الاجتماع هم القرويون غالباً فان في ذلك كشفاً لبعض اسرار الديمقراطية التي كانت ضاربة بجرانها في ذلك البلد الامين

يهمنا ايضاً — ايها السادة — ان نعلم ان الاثينيين البحت لم يكونوا من الارسطقراطيين الذين لا عمل لهم ولا كانوا عالةً على ارقائهم كما يذهب الى ذلك فريق من الناس. كلا! انهم كانوا جميعاً سواء في الحقوق والامتيازات الوطنية التي حرم منها ارقاؤهم والاجانب النازلون بينهم. هذا ما كان من امر النظام الاجتماعي عند القوم بوجه الاجمال

اما لا تكون مبعدين اذا قلنا ان الاثينيين هم اول من وضع النظام الحكومي للامم. ولكن الفكرة قد تبدلت اليوم عما كانت عليهِ في عصرهم. كان الرجل الاثيني يفهم من معنى الحكومة انها عبارة عن شركة قائمة على اساس تبادل المنفعة. وعندهم ان المنافع او المصالح لا تخرج عن امور ثلاثة: سلامة حياة الجمعية. واطمئنانها. واستقرار الامن فيها. فالوطني الصميم اي كل فرد من الافراد المؤسسين لهذه الشركة يملك حق ابداء الرأي في المصالح العامة التي تقرُّها الجمعية. فاذا حلَّ بالدولة خطر او نزل بها خطب جلل وجب على الشركاء جميعاً ان ينهضوا للدفاع عن وطنهم والذود عن حوضهِ. فينخرط عامتهم وخاصتهم في سلك الجند ويعملون سيوفهم ورماحهم في صدور عدوهم حتى ينجاب غبار الحرب عن فوزهم او فوز عدوهم. واذا ما اصاب الدولة رخاء ونعيم كان للشركاء نصيب من ذلك الرخاء مباشرة او بالواسطة. نعرف من ذلك ان الوطني النحرير كان من واجبهِ ان يعمل على حفظ الحياة المشتركة ويبذل كلَّ مجهوداتهِ في جلب المنفعة ودفع المضرة. هذا هو مبلغ فهم الاثينيين القدماء لمعنى الحكومة. ولقد جاء في نظريات حكيمهم ارسطو ان مبدأ دوران دولاب الحكومة يقوم على امرين. مداولات المجلس. ونشر العدل. واني امسك عن الخوض في هذه النقطة لعدم حاجتنا اليها الآن

لم يكن الاجانب النزلاء يخولون حقوق الوطنيين الصرفة الاّ اذا قام احدهم بخدمة جليلة للوطن على انهُ لم ينعم على احدهم بهذا الامتياز الاّ بموافقة المجلس مرتين وباجماع ٦٠٠٠ صوت في المرة الثانية ذلك فضلاً عن التحريات الدقيقة التي تستلزمها الحال . ولم تكن هذه الحقوق والامتيازات ثابتة خالدة بل ان المتمتع بها قابل للتجريد منها اذا ارتكب جرمًا او اتمّ كبيراً يضر بالمصلحة العامة . اما اذا قام احد الافراد بعمل فاخر فان الامة ترفع شأنهُ وتبيح لهُ ان يتبوأ مقعدهُ من صدور المجالس وتعفيهُ من بعض التكاليف العامة

كان الوطنيون يتزوج بعضهم من بعض ولا يتزوج الاجنبيُّ من وطنية على الاطلاق. ولم يكن من حق الاجنبي ايضاً ان يقيم الدعاوي القضائية الا عن يد وكيل من الوطنيين الاصليين . وكان من الضروري ان يكون لكل اجنبي وصيٌّ وطني يحفظهُ من الاضطهاد او الاساءة . على ان هؤلاء النزلاء كانوا عرضة للاستخدام في الجندية كما كرا ضباط وكذلك كانوا يدعون لخدمة في السفن الحربية

لم يكن الرقيق عندهم كما يفهم عادة من هذه اللفظة ولكنهُ كان خادماً ابيض اللون كسيدهِ غير انهُ كان مسيراً لا مخيراً رقيقاً لا حرًّا . نعم ان الرقيق كان يباع ويشرى الاّ انه كان ينال من سيدهِ كل عطف وعناية . ولئن كان هناك بعض سيئي الخلق ممن لا يرقبون في الله إلاًّ ولا ذمة قساة القلوب يسومون عبيدهم سوء العذاب ولكنهم كانوا قليلي العدد جدًّا بل كان وجودهم نادراً والنادر لا حكم لهُ . كان السيد الاثيني حريصاً على عبدهِ كثيراً فيطعمهُ مما يأكل ويعنى بعلاجهِ اذا مرض ومن ثم كانت الثقة متبادلة والمحبة نامية بين السيد والمسود . واذا غضضنا الطرف عن مسألة الاتفاق في اللون فان الاحساس الديمقراطي في السيد الاثيني كان يجذبهُ نحو رقيقهِ ولا شك في ان نتيجة ذلك وفاق اجتماعي تام — وهو غير ما عرفت بهِ الطبقات الارسطقراطية في دولة الرومان من التجبر والكبرياء والتمجد الباطل . نستخلص من ذلك ان الفضائل الانسانية كانت مجموعها مستقرة عند الاثينيين في عصر كان العالم مائجاً فيهِ بمظالم الاسترقاق ومصارع الاستعباد . بينما كان السيد الاثيني على هذه الشمائل الطيبة والاخلاق الفاضلة كان السيد الروماني زاهياً زهو الغراب صلفاً مختالاً فخوراً متغطرساً الى الدرجة القصوى . كان الاثيني حسن العشرة . رحب الصدر . جديًّا في كل اعماله عكس ما كان عليهِ الروماني

نروي عن المؤرخ بلوطارخ قصة احد الاشراف الرومانيين قال : اصدر ذلك السيد

امرهُ الى عبيدهِ ان لا يخاطبهُ احدهم في امر ما لم يسألهُ عنهُ . واتفق لهذا السيد انهُ اقام وليمة لاصدقائهِ فلما ارسل عبدهُ الى صديق لهُ يدعى فلوديوس لم يحضر فارسل اليهِ عبدهُ مرة ثانية فلم يحضر ايضاً فلما اعياه الامر استدعى عبدهُ وقال لهُ « الم تأخذ الدعوة وتوصلها الى صديقي » قال العبد « بلى ايها السيد » قال « ولمَ لم يحضر » قال العبد « انهُ ابى الحضور » قال السيد « اما كان لك ان تبلغني ذلك ؟ » قال عبدهُ « انك لم تسألني عن ذلك ايها السيد » ثم استطرد بلوخارخ من هذه القصة الى المقارنة بين اخلاق الاثينيين والرومانيين الى ان قال وان السيد الاثيني ليجاذب عبدهُ اطراف الاحاديث ويباحثهُ الابحاث السياسية ويسألهُ رأيهُ في بعض المسائل بينما يكون هذا مشتغلاً بحفر الارض وفلحها

كان نصيب العبد في العائلة نصيب احد اعضائها الاَّ انهُ كان قابلاً للعاقبة والتعزير على انهُ ما كان لسيد الاثيني ان يقتل عبدهُ كما كان يفعل الرومانيون بعبيدهم

وان من دواعي الدهشة والاضطراب ان يتساءل الاثينيون في امر الاسترقاق مع ما كانوا عليهِ من حب اطلاق الحرية الشخصية وحرية القول والعمل الى حد ان حكماءهم وفلاسفتهم مثل سقراط وافلاطون وارسطو لم يروا بأساً في الرق واتخاذ الارقاء . قال ارسطو « ان بعض الاثلمي يولدون سادة احراراً بينما يولد غيرهم عبيداً اسارى » . وزاد على ذلك بقولهِ « ان الرقيق آلة حية في يد اهل الذكاء الراقي يصرفونها على حسب اهوائهم » . ومن هذا يحق لنا ان نؤمن بأن عبيد اثينا كانوا احط من الاحرار من الوجهين العقلية والاجتماعية . ولكن بالرغم عما قالهُ ارسطو واذاعهُ بين مواطنيهِ نجد ان ارقى اولئك القوم عقلاً واعني بذلك شعراءهم كانوا يعطفون على الرقيق وينصحون دائماً الى الجمهور ان يحسن معاملتهُ لما كانوا يعلمونهُ من تكاليفهِ وواجباتهِ تلقاء سيدهِ . اما مصدر اولئك الارقاء والطريق التي كانوا يستوردون منها فهو الاقطار المجاورة للاثينيين فاذا وقع اهلها اسرى في ايدي هؤلاء باعوهم بالمزاد في اليوم الاول من كل شهر

يتحصل مما سبق ان الاثينيين الاصليين كانوا متساوي الحقوق في المسائل المالية والاجتماعية فكان الكثير منهم ارباب ضياع او زراعاً او اصحاب معامل صناعية او تجاراً او ملاك سفن او بحارة او اهل حرف وقد كان ابو الخطيب ديموستنز صانع اسياف وكانت ام الروائي يوروبيدس بائعة نباتات اي خضار

قال المؤرخ بلوخارخ يصف اعمال الحاكم الاثيني بريكليز : ان الغرض الذي كان يرمي اليهِ الحاكم بريكليز من تشييد المباني العظيمة والعمارات الشاهقة هو « خلق العمل » هو ايجاد

سبب يدفع الاهالي الى الحركة فينحل ما انعقد من ايدي الشعب وينشطون من عقال الكسل والجمود . ولان هذه الاعمال تحيي كل صنف من الصناعات والحرف وتكثر من الايدي العاملة وتجعل الاهالي اهل تكسب لا اهل بطالة . ولم يرض ذلك الحاكم ان يعيش عامة القوم وسوقتهم دون ان يكون لهم نصيب من العمل او ان يعيشوا عالة على غيرهم . من اجل ذلك كان لا ينفك عن التفكير في ابتكار الاعمال الكبيرة والمشروعات النافعة التي تستلزم حولها الكثير من الصناعات والفنون والتي يعوزها الكثير من الايدي » . فرحم الله ملكاً هذه اعماله

اذا حللنا اخلاق هؤلاء القوم تحليلاً ايكولوجياً وجدنا انهم لم يكونوا يحتقرون العمل مطلقاً ولا يستنكفون ان يزاولوا الحرف بانواعها . وجدنا انهم لم تشب صفاتهم الدناءة والملق والتزلف . لم يكن بينهم الشذوذ الذي كثيراً ما نراه باعيننا في هذا الزمان . ذلك الشذوذ الذي يشير اليه حكيمنا العربي بقوله

والغنى في يد الشيم قبيح قدر قبح الكريم في الاملاق

ولم يكن كذلك من اخلاقهم ان يلتصقوا بالاغنياء . الامر الذي قد نشا بيننا وانحطت بسببه اخلاقنا اصلح الله الحال . لم يكن الثراء او حسن البزة وجودة الثياب من مميزات الانسان بل مميزاته هي فضيلته وعلمه . لم يكن سقراط رجلاً ذا ثروة ولكنه لما احرزه من الفضائل الادبية العالية كان مقبولاً محترماً من كل مواطنيه لا فرق بين العمالك والملوك

النساء وحقوقهن

لم تكن المرأة قبل ذلك الزمان في اثينا الا قعيدة منزلها وحلس دارها فهي ملازمة حياتها وتوزع الاعمال المنزلية على ارقائها وتشتغل بغزل الاقمشة تتخذ منها لبوسها وتربي بناتها وصغار اولادها . فلم تتعد تربيتها هذه المسائل . فهي لا تبرح بيتها ابداً الا مع من يصحبها من ذويها واهل بيتها . وليعلم اخواني ان هذا الاحتجاب والانزواء والعزلة عن الناس الذي جرى عليه هؤلاء النساء جاء من التقليد كبقية العوائد التي تسربت الى اثينا من الممالك المجاورة لها . ولا ريب في ان هذا الاحتجاب كان عاملاً على انحطاطهن في القوتين البدنية والعقلية بسبب بعدهن عن الحركة الدنيوية وجهلهن بما يحصل في العالم (ولعل هذا ايضاً هو اقوى سبب في تقهقر نساء مصر في هذا العصر) أفليس من الطبيعي اذن ان يعاملهن الرجال كأن انحطاطهن هذا طبيعي لا كسبي فيحتقروهن ولا يروا فيهن الكفاءة والاستعداد للاضطلاع على عظائم الامور . وعلى ذلك لم تكن الحياة الاثينية المنزلية مما كان يأبه له رجال ذلك الزمان . بل كان

الزواج عندهم يجري مجرى عامة عوائدهم . اي انهم لم يعدوه من المسائل الضرورية في استكمال شروط الحياة كما هي الحال عند اهل هذا الزمان

كان الصداق عندهم امراً جوهرياً كما هي الحال في فرنسا الآن فاذا كان نقداً قدم الرجل ضمانهُ واذا كان اثاثاً لم يصح للزوج ان يعتبر ذلك ملكاً لهُ

كان الطلاق عندهم كذلك مباحاً ولكنهُ كان ميسوراً للرجل بقدر ما كان عسيراً على المرأة وما على الرجل اذا رام عن زوجتهِ فصالاً الا ان يرد الصداق اليها ويرسلها الى بيت اهلها . اما هي فمن الصعب ان تحصل على طلاقها من زوجها . ويقول بعضهم انهُ كان يوجد في اثينا رجال موكلون بمراقبة النساء مراقبة شديدة من حيث السلوك وخروجهن من المنازل . على ان ذلك لم يكن في عصر تمدنها الذي نتكلم عنهُ في ليلتنا هذه بدليل قول ارسطو « ان ذلك ينافي الروح الديمقراطية . اذ كيف يسوغ لنا ان نمنع النساء الخروج اذا كان يمكنهن ان يقمن في بعض الفقراء والمتاجر بما يقوم بهِ الارقاء في المتاجر الاخرى »

وقبل الانتقال من هذا الموضوع نقول : ان كان حق المرأة وحريتها مقيدين نظرياً الا انهما كانت متمتعة بهما من الوجهة العملية . وان الادوار التي تلعبها المرأة في كثير من الروايات المضحكة تدلنا على ما كان يومئذ من التأثير لطائفة النساء . قال المشترع سولون « كل امرأة يوم بتأثير المرأة لا نصيب لهُ من المشروعية » وحكى ديموتنس عن رجل كان يجادل امرأتهُ في الامور السياسية . وهذه الشواهد تشير بمجموعها الى ما كان للنساء في الواقع من الحرية خلافاً لما قد يبين من نظريات القوم في مسئلة حقوق المرأة

وهنا اختم الحديث مرجئاً الى فرصة اخرى بحثي في التربية والتعليم عن الاثينيين ومواسم القوم وقضائهم وصناعاتهم واثبات انهم كانوا اقرب في احوالهم الى اهل هذا العصر من غيرهم من الامم

عبد الرحمن زهدي